مجلـــة كليـــة التربيـــة
العـــــدد الرابع والثلاثون
شباط / ٢٠١٩

التَّفكير العلمي عند يونس بن حبيب البصريِّ

م.د حسين علي خضير

جامعة واسط / كلية التربية للعلوم الإنسانية

حاول هذا البحث من خلال مفردات التّفكير العلمي أنْ يقدّم مقاربةً منهجيةً وموضوعية للتفكير العلمي عند العرب، وفي بيئة لغوية متينة تمثلت بمدينة البصرة ، وذلك بتسليط الضوء على علمٍ من الأعلام المؤسسين للمنظومة الفكرية المتكاملة في العلوم اللغوية ، فيونس بن حبيب البصري صاحب مكانة عاليةٍ ويتمتع بعلمية رائقة وحسٍّ لغوي رصين ، مما جعله مورداً لكثيرٍ من العلماء المعاصرين له والتالين لزمانه يصدرون عنه ويرجعون له في كثيرٍ من مسائل اللغة النظرية والتطبيقية .

وكشف البحث عن مرتكزات التفكير العلمي عند يونس بن حبيب البصري ؛ تلك المرتكزات التي تعتمد على المنهج العلمي الرصين من التأمل والاستقراء التام والموضوعية وآليات التجريب ، وأساليب التفكير الناجز ، والحسّ النقدي الثاقب ، وغيرها .

وكان ليونس منهج وأقيسة تجنح إلى الاستقلال عن أقيسة مدرسته البصرية ، وكان له عناية فائقة بالمشكلات الفكرية التي تدور في أذهان الناس.

Search summary

Scientific thinking when Younis bin Habib Basri

Dr. Hussein Ali Khudair

University of Wasit / Faculty of Education for Human Sciences

This research, through the vocabulary of scientific thinking, attempted to provide a systematic and objective approach to the scientific thinking of the Arabs and in a strong linguistic environment in the city of Basra by highlighting the knowledge of the founding flags of the integrated intellectual system in linguistics, Which made him a resource for many of the contemporary scholars of his and the Tallinn for his time, and they return to him in many issues of the theoretical and applied language.

The research revealed the foundations of scientific thinking in Yunus bin Habib Basri; those pillars that rely on the scientific method of careful reflection and full extrapolation and objectivity and mechanisms of experimentation, and methods of thinking, and critical sense of insight, and others.

He was an approach to independence from the foundations of his visual school, and he took great care of the intellectual problems in people's minds.

توطئة

إنَّ علم العربية في الدِّين له المحلُّ الأعلى ، والمقام الأسمى ، إذ هو السُّلم الذي عليه يرتقى إلى فهم الخطاب ، وقنطرة الآداب ، الّتي عليها المجاز إلى معرفة السّنة والكتاب ، الذي تكفَّل سبحانه بحفظِه وهيأ لذلك الأسباب ، ومن أسباب حفظه : المحافظة على لغته ، فقد هيَّأ الله لهذه اللغة علماء عاملين وُفِّقوا إلى جمع هذه اللغة من أفواه العرب ، ودراستها دراسة علمية ، واستخراج أصولها وقواعدها، والنّحو الصّرف في مقدمة فنون العربية الّتي حظيت من العناية بنصيب أوفر ،ومن هؤلاء العلماء يونس بن حبيب البصري وهو علمٌ من الأعلام المؤسسين للمنظومة الفكرية المتكاملة في العلوم اللغوية ، فيونس بن حبيب البصري صاحب مكانة عالية ويتمتع بعلمية رائقة وحسٍّ لغويّ رصين ، مما جعله مورداً لكثيرٍ من العلماء المعاصرين له والتالين لزمانه يصدرون عنه ويرجعون له في كثيرٍ من مسائل اللغة النّظرية والتطبيقية. وكان ليونس منهج وأقيسة تجنحُ إلى الاستقلال عن أقيسة مدرسته البصرية، وكان له عنايةُ فائقة بالمشكلات الفكرية التي تدورُ في أذهان النّاس.

التمهيد (مقدمات تأسيسيّة)

قبل الشّروع في دراسة مسائل البحث لا بُدَّ من التّمهيد لذلك بسرد موجز تعريفي عن محوري البحث الرئيسين : **يونس بن حبيب** ، **والتّفكير العلمي** ، وفيما يلي التعريف بكلٍّ منهما :

أولاً: يونس بن حبيب البصري

فيما يأتي لمحة سريعة نتناول فيها أربع نقاط تعرِّف بيونس بن حبيب ، وهي :

١- **اسمه ونسبه:** هو أبو عبد الرحمن يونس بن عبد الرحمن، كان مولى لبني ضبة(١)، وقيل إنَّ حبيب هو اسم أمه(٢) .

٢- **مولده:** اختلفت كُتُبُ التَّراجم في تحديد سنة مولد يونس بن حبيب ، وقد ذكر شمس الدين بن خلكان(ت ٦٨١هـ) صورة هذا الخلاف بقوله :(مولده سنة تسعين .. وقيل سنة ثمانين) (٣).

٣- **علمه وثقافته** : نشأ وترعرع يونس بن حبيب بالبصرة ، والبصرة في عصره كانت قبلة العلم وكعبة الفكر ومحطّ أنظار العلماء والمفكرين ،ومتح علمه من الحلقات العلمية في مساجد البصرة ، فأصبح عالماً بارعاً في فنون كثيرة ، وبخاصة ما كان يتصل منها بالنحو ، والصرف ، والقراءات، واللهجات ،والحديث الشريف ،وفنون الأدب ،ولعلَّ اتجاهه إلى هذه العلوم ناشئ من اقتفاء أثر أساتذته الذين حضر عليهم في حياته العلمية ومنهم عيسى بن عمر الثقفي (ت ١٤٩هـ) وأبو عمرو بن العلاء (ت ١٥٤هـ) ، وبذلك تهيأ له المنبت الصالح ، وتيسّرت له البيئة التي تموج بالعلم ، وتدفع إليه دفعاً ثم جمع له الله أسباب العبقرية ، والنّجاح والنبوغ التي تتمثل في العقل الواعي ، والذّهن الألمعيّ ، حتى قيل فيه: (مثل يونس كمثلِ كوز ضيق الرأس ، لا يدخله شيء إلّا بعسر ، فإذا دخله لم يخرج منه)(٤). أي لا ينسى لشده حفظه .

٤- وفاته : ذكر ابن الجزريّ أنَّ يونس بن حبيب (توفى بعد اثنتين وثمانين ومئة)(٥)، وقال ابنُ العماد الحنبليّ (ت ١٠٨٩) في وفيات سنة ١٨٢هـ : (وفيها وقيل قبلها أو بعدها توفى يونس)(٦).

ثانيًا : التفكير العلمي :

هو ذلك النّوع من التّفكير المنظم الذي يعتمد على مجموعة من المرتكزات العقلية، ويفترض معالجات للمشاكل بأساليب منظمة، وهو (وصفٌ للانتقال المنهجي المعلّل بين جزيئات القضية العلميّة أو الحياتيّة الواحدة؛ ذلك أنّه يحوِّل الإحساس بمشكلة علمية ما إلى عمل معرفي علميّ)(٧).

تلك المرتكزات التي تعتمد على المنهج العلميّ الرصين من التأمل والاستقراء التام والموضوعية وآليات التجريب ، وأساليب التّفكير النّاجز ، والحسّ النّقدي الثّاقب ،وغيرها. وقد وصفه أبو عبيدة

معمّر بن المُثنى التّيمي (ت ٢٠٨هـ) : (لم يكن العلم عند يونس إلّا ما يراه بعينِه) (٨) ، وتلك خصيصةُ العالم الثبت ، وهي المنهجُ العقلي السّليم فالحق أن رأيت والباطل أن سمعت ، وبهذا فهو يضع منهجاً سليماً للتثبت يفتقر إليه بعض أهل العلم .

ومن أمارات التثبت عند يونس بن حبيب حين ذُكر له أن سيبويه ألّف كتاباً في النحو استغرب في بادئ الأمر، وأنكر صنيعه ، لكنه سلّم حين لحظ دقة سيبويه في النقل، فقد (ذكر سيبويه عند يونس بن حبيب البصري ، فقال : أظنُّ هذا الغلام يكذب على الخليل ، فقيل له : وقد روى عنك أشياء فانظر فيها ، فنظر فيها ، وقال : صدق في جميع ما قال ، هو قولي)(٩).

ومن خصائص التَّفكير العلمي في الدّرس المعرفي الموضوعية في الوصول إلى المعرفة والابتعاد عن العواطف، والاعتماد على استعمال الفرضيات العقلية الرائقة، والتأملات الثاقبة التي تستند إلى حقائق رصينة وشواهد ثابتة .

والشّواهد على موضوعية يونس بن حبيب تخطئة الكسائي في موارد عديدة على الرغم من عرى الصداقة بينهما، ووصفه للكسائي بمؤدب أمير المؤمنين(١٠) إلا أنّ ذلك لا يمنعه من نقده، فقد جاء في الخبر أنَّ الشراداني تلميذ يونس بن حبيب سأل الكسائي: (كيف تصغّر حسيناً؟) فقال: (حسينين) فقال مستنكراً: (أتصغر مصغراً؟ هذا ما لا نهاية له. فوثب رجل كان مع الكسائي على الشراداني وقال: (أتقول هذا لمؤدب أمير المؤمنين؟ فكان رد يونس الحاسم: (مغالبة العلم بالحجّة لابالسلطة)(١١).

النّظرة التّأملية عند يونس بن حبيب

تميّز يونس بن حبيب بامتلاكه منظومة معرفية اتجاه الأشياء وحقائقها ، ولا شكَّ أنّه كان يخضع كل شيءٍ لطول التَّدبر وإعمال الفكر ، ولا بدّ أنّه أفاد بتدبره مما حوله من مظاهر حضارية انعكست على المجتمع البصري الجديد ، وخبر الثقافات ، والأهواء والمذاهب التي كانت تصطرع في هذه البيئة ، فكان على مقربة مما كان يجري في حلقات الدرس من جدال ومناقشة فيما يطرح فيها من مسائل

تتعلق بالعقيدة وأصول الدين ، كالذي جرى بين واصل بن عطاء والحسن البصريّ، وبين الخوارج وعامة المسلمين ، فكان يقول: (ثلاثة والله أشتهي أنْ أُمكنَّ من مناظرتهم يوم القيامة : آدم (عليه السلام) ، فأقول له : قد مكنّك اللهُ من الجنة وحرّم عليك شجرة ، فقصدت لها حتى ألقيتنا في هذا المكروه؟ ويوسف (عليه السلام) ، أقول له : كنت بمصر ، وأبوك عليه السلام بكنعان ، وبينك وبينه عشر مراحل ، يبكي عليك ، لِمَ لمْ ترسل إليه ، إنّي في عافية ، وتريحه مما كان فيه من الحزن؟ وطلحة والزبير أقول لهما: علي بن أبي طالب، (عليه السلام) بايعتماه بالمدينة، وخلعتماه بالعراق ، لِمَ ، أي شيء أحدث؟(١٢)

ويمكن وضع تساؤلات يونس بن حبيب على وفق المستويات الآتية :

المستوى الأوّل: إنَّ عالماً مثل يونس بن حبيب البصري تلك العقلية التي لها الأثر البالغ في بناء المنظومة اللغوية والنحوية عند العرب، لا تغيبُ عن ذهنه أجوبة تلك التساؤلات، ولكنه أراد في هذا الأمر تنبيه طلبته وتحريك أذهانهم نحو مرتكز مهمّ شغل بالهم، فالظاهر أنَّ حلقه درسه في البصرة شهدت حراكاً عقدياً/ كلاميّاً بين جهتين معروفتين، وكأن بؤرة الأسئلة تنساب نحو الخصيصة الثالثة ، وما وضع السؤال الأول والثاني حتى يصل به المقام إلى الثّالث .

وجانب الدكتور حسين نصار الصواب حين ذهب إلى أنّ تلك الأسئلة تشي بنسبة العيب والخطأ للأنبياء(١٣)، فيونس يعرفُ معاريض كلامه، ولا يستزل به القول، وهو من خبراء اللغة وسدنتها.

المستوى الثاني: إنَّ طرح مثل تلك التساؤلات تفتح الذهن على المرتكزات المعرفية التي تحيط بذهنية علماء البصرة، ولا غرو أنَّ مجموع تلك التساؤلات تصبُّ في ملتقى واحد وهو قضية (القضاء والقدر) تلك المسألة التي شغلت أذهان المسلمين، في تلك الحقبة، وهي بداية تكوين الأصول المعرفية والعقدية، وترسيخ بعض المفاهيم الكلامية، ولم يكن يونس بعيداً عن تلك البيئة.

ولا قيمة واعتبار بما استدلَّ به الدكتور حسين نصار بكون يونس بن حبيب بعيداً عن هذا المعترك، وهذه عبارته:(وكان يونس حريصاً ألا يخوض في المسائل التي فرقت بين المسلمين. قيل إنّه جرى ذكر القدر في أحد مجالسه، فسئل عن رأيه فيه، فقال:" لا فكر لي فيه") (١٤).

وليس بالضرورة أنْ يفسّرَ موقف عدم الإجابة عن هذا الموضوع بأنه بعيد عن هذا المعترك، بل في رواية أخرى بينه وبين الخليل بن أحمد الفراهيدي تكشف عن التقية الاجتماعية التي يمارسها بعض علماء اللغة تقيةً من العوام(١٥).

المستوى الثالث: إنَّ هذه الأسئلة تمثل تطلعاً فلسفياً للحقائق، وهي ذات أبعاد وجودية تُعنى بما يشغل فكر الإنسان، وفيها تدرّج من العموم إلى الخصوص، فالأوّل يعنى بالإنسانية في كلّ حيثياتها، والثَّانية موضع اهتمام المسلمين، والثالث موضع عناية مريدي الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام).

ويظهرُ أنَّ منهج إثارة الأسئلة عند يونس بن حبيب هو أسلوب للتمويه ، وتفكير علمي ثاقب ، ومن مؤيدات هذا المرتكز ما جاء في كشف الغمة نقلاً عن الشيخ الطوسيّ أنّ يونس بن حبيب النحوي قال: ((قلت للخليل بن أحمد أريد أن أسألك عن مسألة فتكتمها عليّ، فقال قولك يدل على أنَّ الجواب أغلظ من السّؤال فتكتمه أنت أيضا قلت نعم أيام حياتك قال سلْ : قلت ما بال أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله) ورحمهم كأنهم كلهم بنو أم واحدة وعلي بن أبي طالب من بينهم كأنه ابن علّة فقال إنَّ علياً تقدمهم إسلاماً ،وفاقهم علماً، وبذلهم شرفاً، ورجحهم زهداً، وطولهم جهاداً، والناس إلى أشكالهم وأشباههم أميل منهم إلى من بان منهم.)(١٦) .

وزاد الشيخ محمد باقر المجلسي (ت ١١١١ هـ) هذا التّذييل فقال الخليل ليونس : من أين لك هذا السؤال ؟ قال: قلت: قد وعدتني الجواب ، قال: وقد ضمنت لي الكتمان .(١٧).

ويستبطن هذا النّص المؤشرات الآتية:

المؤشر الأوّل: يؤشر هذا النص وجود حالة تقية اجتماعية مكثفة يعيشها كلا العالمين، ولا غرو في ذلك في مجتمع مثل البصرة الذي تتنازعه أهواء واتجاهات عقدية مختلفة

المؤشر الثاني: كانت محنة الموقف من الإمام علي (عليه السلام) تشكل هاجساً ومعلماً واضحاً في ذهنية علماء البصرة، وهو يشي بأنَّ هنالك صراعاً كلاميّاً بين طبقات المجتمع في جهته المذهبية.

المؤشر الثالث: يمكن أنْ يكون سؤالُ يونس بن حبيب للخليل بن أحمد الفراهيدي من باب الفضول المعرفي، وهو طريق لمعرفة المشرب العقديّ الذي يؤمنُ به الخليل بن أحمد الفراهيدي، وهو وجه متقبّل.

الحسّ النقدي الصائب

يونس بن حبيب البصري خَبَر كلام العرب وعرِف مسالكهم في القول، وكان عالماً بالشعر العربي، نافذ البصيرة في تمييز جيد الشعر من رديئه، ثاقب الرأي بطبقات الشعراء ، حافظاً لأنسابهم ، مرجعاً قيّماً لمن كان الأدب يشكل جزءاً من تفكيرهم وهمومهم (١٨)، ونستطيع تلّمس هذا الحسَّ بالمحاور الآتية :

المحور الأوّل: كانت المعرفة التاريخية من مؤهلات يونس بن حبيب تلك المعرفة التي تؤهلّه لاستنباط الحكم النقدي الصائب، ومن ذلك أنَّ أحدهم روى قولاً لأبي عمرو بن العلاء(ت ١٥٤هـ) في مجلسٍ بحضور – يونس وأبي عبيدة – أنَّ الوليد بن عبد الملك لامَ العجاج لقوله شعراً في عمر بن عبيد الله بن معمر أفضل من ذلك الذي قال فيه ، فقال يونس لأبي عبيدة معمر بن المثنى (ت ٢٠٨هـ) بعد سماع الرواية : أتصدق بهذا ؟ ما كان من هذا شيء قط ، ولا كان الوليد يحسنه.... وكان الوليد لحاناً ، وكان عبد الملك يعتذر عن ذلك ، ويقول : شغلنا حب الوليد عن تأديبه ، لكن هذا سليمان فأسلوه عمّا شئتم)(١٩).

المحور الثاني: من مميزات النَّاقد الرَّصين عدم التّكلف واختيار حوشي الكلام، وكذلك الابتعاد عن التّأويل المفرط، فقد جاء بالأثر أنَّ جعفر بن العبّاس قدم عليه من عند الخليفة العباسي المهدي، وقال له: أنا وأمير المؤمنين اختلفنا في هذا البيت :

والشّيبُ ينهضُ في السّواد كأنّه ليلٌ يصيحُ بجانبيه نهار

فما الليل والنهار؟ فقال يونس: الليل الذي تعرف فقال جعفر: زعم المهدي أنَّ الليل فرخ الكروان، والنهار فرخ الحباري)(٢٠)، فقال أبو عبيدة في البيت ما قاله يونس . والذي قاله المهدي معروف في الغريب من اللغة.

ويمكن الإشارة إلى ملحظين على هذه الرواية :

الملحظُ الأوّل : إنّ السياق يأبى أنْ يكونَ تفسير المهدي صحيحاً ،والذي أغرى المهدي هو كلمة (يصيح) الدال على وجود طائرين ، ولكن لا يساعده هذا الفهم لاسيما إذا عرفنا أن قائل البيت هو أبو فراس الفرزدق ، فمن غير المعقول أن يكون التشبيه بالأخفى ، وذلك بعيدٌ عن شاعرية الفرزدق. فضلاً عن تأييد أبي عبيدة في رواية أخرى أوردها ابن منظور يقول فيها : (القول عندي ما قاله يونس ، وأما الذي ذكره المهدي . فهو معروف في الغريب ولكن ليس هذا موضعه)(٢١) .

الملحظ الثاني: ما ذكره يونس بن حبيب كان موافقاً لطلب الخليفة، ولم يستطلب الخليفة بيان أكثر من هذا، وفاقاً لمقتضى الحال ، لكن عبد الجبار بن بري (ت٥٨٢هـ) نجده يقول: (قد ذكر أهل المعاني أنَّ المعنى على ما قاله يونس ، وإن كان لم يفسره تفسيراً شافياً وإنَّه لما قال : ليل يصيح بجانبيه نهار ، فاستعار للنهار الصياح ؛ لأنَّ النهار لما كان آخذاً في الإقبال والإقدام والليل آخذ في الإدبار ، صار النهار كأنّه هازم ، والليل مهزوم ، ومن عادة الهازم أنّه يصيح على المهزوم ، ألا ترى إلى قول الشماخ :

ولاقت بأرجاء البسيطة ساطعاً من الصبح لما صاح بالليل نفرا

فقال : صاح بالليل حتى نفر وانهزم ، قال : وقد استعمل هذا المعنى ابن هانئ في قوله :

خليلي هبا فانصراها على الدّجى كتائب حتى يهزم الليل هازم

وحتى ترى الجوزاء تنثر عقدها وتسقط من كف الثريا الخواتم)(٢٢) ولا يخفى التكلّف على توجيه ابن بري على الرواية، ولو اقتصر على الفهم البسيط لأجاد وأفاد

وتجنب التأويل هو المنهج الأقوم في التحليل اللّغوي ، فهم لا يسلمون بالتأويل إلا إذا اضطروا إلى ذلك كنصِّهم على أنّه (إذا وجد السبيل إلى ترك الكلام على وجهه ونظمه كان أولى من تأويل غير ذلك معه)(٢٣).

ويظهر من عرض توجيه هذه الرواية أنَّ مفردة يصيح أصابها تحريف والصواب (يصبح) والصباح من ملازمات البياض ، وهو أقرب في التوجيه المنطقي.

مرتكزات التفكير العلمي

يقوم النحو العربي على مرتكزات مهمة في بناء منظومته المنهجية، وتلك المرتكزات تنحصر في مرتكزين : منهج الاستقراء ، ومنهج التفسير، ويمكن عرض هذين المرتكزين على النّحو الآتي :

أولاً: منهج الاستقراء

الاستقراء لغة: التتبع، يقال: استقريت البلاد إذا تتبعتها تخرج من أرض إلى أرض. وبني فلان استقريتهم: مررت بهم واحدا واحدا، وهو من الإتباع(٢٤).

وهو مصطلح منطقي (يُراد به الحكم على كلّي بما وجد في جزئياته الكثيرة)(٢٥). وقد ذكره الأصوليون بألفاظ مختلفة، إلا أنّ جميعها يؤدي المعنى المذكور(٢٦). فقد ذكره الإسنوي، بقوله:(الاستدلال بثبوت الحكم في الجزئيات على ثبوته للقاعدة الكلية) (٢٧). وعرّفه الشاطبي بـ(تصفح الجزئيات ليثبت من جهتها حكم عام إمّا قطعي وإمّا ظني)(٢٨).

وهذه التعريفات وما أشبهها متفقة مع تصوير المناطقة للاستقراء.

أمّا الاستقراء في البحث اللغوي فهو المعتمد في بناء القانون النحوي، وهذا يدلّل على أنَّ الدرس اللغوي عند العرب أخذ المنهج الأقوم في التعامل مع الظواهر وهو يتلائم مع المنهجية العلمية التي تتكئ على الاستقراء العلمي التجريبي بدءاً بالجزيئات بالاستقراء وصولاً إلى الكلّيات التي تؤسس القواعد النحوية

ولم يكن يونس بن حبيب بدعاً في استعمال هذا المنهج، وكان يونس بن حبيب أميناً في النقل (سمع مِنَ العرب كما سمع مَنْ قبله)(٢٩).

وكان يونس ملجأ سيبويه في الأخذ من العرب لما يتميّز بالدقة والتّثبت في نقل الرّواية ، وهو المعتمد في صحّة الرواية ، قال سيبويه (ت ١٨٠هـ) : (وسمعنا بعض العرب يقول :الحمدُ لله ربَّ العالمين ، فسألت عنها يونس فزعم أنها عربية)(٣٠). ومن الشواهد التي ذكرها سيبويه في هذا المضمار قوله : (فإذا قالوا (ولد سدوسْ) كذا وكذا أو (ولد جذام) كذا كذا صرفوا ، وممّا يقوّي ذلك أنَّ يونس زعم أنَّ بعض العرب يقول هذا تميم بنت مرّ)(٣١).

لقد كان لمنهج يونس ملمحٌ مميزٌ من وجهة نظر المُحدثين ، إذ وصف الدكتور محمّد خير الحلواني منهجه بالقول : (كان منهجه يجمع بين الدراسة الوصفية والنّظرة المعيارية كما جمع بين السّماع والقياس) (٣٢).

وكان يمارس استقراء اللغة بنفسه فنجده يسأل الأعرابي بقوله:(سألت أعرابياً فقلت : أمسكين أنت أم فقير ؟ فقال : لا بل مسكين)(٣٣).

ثانياً : منهج التفسير

التّفسير مرتكزٌ علمي مهم للكشف عن أسرار اللغة العربية ومقوّماتها داخل التركيب اللغوي ، وذلك بتوخي المنهج العلمي في التفسير والتعليل ، والأصل فيه تبيان العلاقة السببية التي ترجع إليها آليات قوانين الإعراب ، والتفسير العلمي يحرِّر العلم والمشتغلين فيه من الوقوع في الخرافات والأوهام ؛ لأنَّه يمدهم بالمعيار الأقوم في تحديد السّببية ، التي تمثل أهمّ خصائص التفكير العلمي :ومن ذلك

التفسير بالافتراض العقلي

كانت الافتراضات العقلية منهجاً ومسلكاً اتخذه اللغويون في التّحليل اللغوي وتوجيه المُشكل اللغوي ، ومن ذلك افتراضهم أنَّ شخصاً سُمِّي ب(مطايا) وأنَّ هذا الاسم ينبغي أن يصغّر – فإنَّ الخليل بن أحمد الفراهيدي ويونس بن حبيب اتفقا على صيغة تصغير (مطايا) ، فقالوا (مُطيّ) ، لكنهما اختلفا اختلافاً واضحاً في أصل ما حُذف وما بقي.

فالخليل يقول بحذف الألف التي قبل الياء ، فيصير (مُطيا) ، وتنقلب الألف الأخيرة ياء ، فيصير (مطي) ،وأما يونس فيحذف ياء التصغير فتنقلب الألف التي بعدها ياءً ، في صيغة لا يصحُّ النَّطق بها ،ثم تنكسر الألف الثانية . وتقلب ياء بدورها حتى نصل إلى (مطي) في آخر المطاف(٣٤).

وربما كان الافتراض هو أبرز ما تأثر به يونس من استدلالات الفقهاء ، وقد برز الافتراض عند يونس بن حبيب في بعض الأبحاث النحوية والصرفية ، لا سّيما في موضوع الممنوع من الصرف ، والتصغير ، ومن ذلك افتراضه أنَّك إذا سميت امرأة ب(قاض) فإنَّك تمنعه من الصرف ، وتقول : مررتُ بقاضي قبلُ (٣٥)، ويفترض كذلك تسمية رجل ب(امرأة).(٣٦)؛ ومن ذلك افتراضه أنَّك إذا سميت رجلاً ب(قبائل) ، وأردت تصغيره ؛ فإنه يرى أن تحذف الهمزة ؛ لأنَّها زائدة فيصير اللفظ على أربعة أحرف (قبال) ، فيصغّر على (قُبيِّل)(٣٧).

قال محمد خير الحلوانيّ: ((قد لجأ النحاة القدماء إلى الافتراض في بحثين من بحوث النحو خاصّة، هما : الممنوع من الصرف ، والتصغير ، ثم جاء الخليل وسيبويه فزادا فيه ، وأغنياه، ولكنّ يونس بن حبيب ظلّ عالقاً بما فعله شيوخه قبله لم يتجاوزه إلى غيره)).(٣٨).

ويمكن القول بأنَّ ظاهرة الافتراض العقلي تمثل ظاهرة واضحة فيما وصلنا من تراث يونس بن حبيب البصري ، وهي تكشف عن ملكة راسخة في المداقة اللغوية ، وتمرّس واضح في دقائق اللغة وأسرارها .

الخاتمة

يمكن أن نوجز في خاتمة هذا البحث أهم النتائج المستوحاة من جملة الأفكار والرؤى والآراء التي تنمّ عن تفكير يونس بن حبيب في العرض والتحليل :

- كشف البحث عن مرتكزات التفكير العلمي عند يونس بن حبيب البصري ؛ تلك المرتكزات التي تعتمد على المنهج العلمي الرصين من التأمل والاستقراء التام والموضوعية وآليات التجريب ، وأساليب التفكير الناجز ، والحسّ النقدي الثاقب.
- ظاهرة الافتراض العقلي تمثل ظاهرة واضحة فيما وصلنا من تراث يونس بن حبيب البصري ، وهي تكشف عن ملكة راسخة في المداقة اللغوية ، وتمرّس واضح في دقائق اللغة وأسرارها .
- لقد كان لمنهج يونس ملمحٌ مميزٌ من وجهة نظر المُحدثين وكان منهجه يجمع بين الدراسة الوصفية والنّظرة المعيارية كما جمع بين السّماع والقياس .
- تميّز يونس بن حبيب بامتلاكه منظومة معرفية اتجاه الأشياء وحقائقها ، ولا شكَّ أنّه كان يخضع كل شيءٍ لطول التَّدبر وإعمال الفكر

الهوامش

١- ينظر طبقات النحويين واللغويين لأبي بكر محمّد بن الحسن المذحجيّ الزّبيديّ : ٥٣ ، ومعجم الأدباء لياقوت بن عبد الله الحموي: ٢٠/ ٦٧.

٢- ينظر: معجم الأدباء لياقوت الحموي: ٢٠/ ٦٧.

٣- وفيات الأعيان، ابن خلكان: ٦/ ٢٤٥.

٤- طبقات النحويين واللغويين د: ٤٨.

٥- ينظر: طبقات القرّاء: لابن الجزري : ٢/ ٤٠٦.

٦- شذرات ذهب في أخبار من الذهب لابن العماد الحنبلي :٤/ ٣٤.

٧- التفكير العلمي في النحو العربي، للدكتور حسن خميس الملخ: ١٣.

٨- طبقات النحويين واللغويين: ٤٨.

٩- نزهة الألباء: لأبي البركات الأنباريّ : ٦١.

١٠- مجالس العلماء ، للزجاجي : ٢٤٤.

١١- شرح العسكري : ١٢٦.

١٢- نزهة الألباء : ٦٣.

١٣- ينظر : يونس بن حبيب ، حسين نصار : ١٤.

١٤- ينظر المصدر نفسه : ١٣.

١٥- ينظر بحار الأنوار : للمجلسي محمد باقر: ٤٠/ ٧٤.

١٦- الأمالي : الشيخ الطوسي .

١٧- بحار الأنوار : ٤٠/ ٧٤.

١٨- ينظر : موقف من يونس بن حبيب (بحث منشور) : ٥.

١٩- ينظر الموشح: للمرزباني : ١٩٦.

٢٠- وفيات الأعيان : ٧/ ٢٤٧.

٢١- لسان العرب : مادة (نهر).

٢٢- ينظر مجلة الرسالة : العدد ٣٢٢: ٨٧.

٢٣- المسائل البغداديات : ٥٧٣.

٢٤- ينظر لسان العرب مادة (قرأ) ، وتاج العروس مادة (قرأ) .

٢٥- الإشارات والتنبيهات لابن سينا : ١/ ٣٦٧، وينظر : المذهب الذاتي في نظرية المعرفة : للسيد كمال الحيدري : ٣٤.

٢٦- ينظر : معارج الأصول : المحقق الحليّ : ٢٢، والبحر المحيط في أصول الفقه للزركشي : ٤/ ٣٢١.

٢٧- نهاية السؤل للاسنوي : ١/ ١٢٤.

٢٨- الموافقات في أصول الشريعة : ٤/ ٢٩٨.

٢٩- أخبار النحويين البصريين ، للسيرافي : ٥١.

٣٠- الكتاب : سيبويه ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون : ٢/ ٦٣.

٣١- المصدر نفسه : ٣/ ٢٤٩.

٣٢- المفصل في تاريخ النحو ، لمحمّد خير الحلواني : ١/ ٢١٤.

٣٣- شرح المفضليات : الأنباري : ٢٣٥.

٣٤- ينظر كتاب سيبويه : ٣/ ٤٧٣ ، و تاريخ النحو العربي في المشرق والمغرب : ٤٧ .

٣٥- الكتاب : ٣/ ٣١٢.

٣٦- المصدر نفسه : ٣/ ٣٩٤.

٣٧- المصدر نفسه : ٣/ ٤٩٣ .

٣٨- المفصل في تأريخ النحو : الحلواني : ١/ ٢٣٥

ثبت المصادر والمراجع :

- القرآن الكريم
- أخبار النحويين البصريين ، لأبي سعيد السيرافي (ت ٣٦٨هـ) المكتبة التوفيقة / القاهرة – مصر ١٣٨٩هـ.
- الإشارات والتنبيهات، أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا(ت٤٢٨هـ)، مع الشرح للمحقق: نصير الدين الطوسي(ت٦٧٢هـ)، مطبعة الحيدري، طهران، إيران، ١٣٧٧هـ/١٩٥٧م.
- الأمالي : الشيخ محمد بن الحسن الطوسي (ت ٤٦٠هـ) ، ط١ ، مطبعة النعمان – النجف العراق ، ١٣٨٧هـ .
- أنباه الرواة : علي بن عيسى القفطي (ت ٦٤٦هـ) ،دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان ، ٢٠٠٩م .
- بحار الأنوار : لمحمّد باقر المجلسي (ت ١١١١هـ)، مكتبة الهجرة ، قم – إيران ، ١٤١٥هـ .

- البحر المحيط في أصول الفقه، بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي الشافعي(ت٧٩٤هـ)، تحقيق عبد القادر العاني والدكتور عمر سليمان الأشقر، والدكتور عبد الستار أبو رغدة، ط٢، دار الصفوة للطباعة والنشر، الكويت، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.
- تاج العروس من جواهر القاموس، السيد محمد مرتضى الحسيني الزبيدي(ت١٢٠٥هـ)، تحقيق الدكتور ضاحي عبد الباقي، ط٣، الكويت، ٢٠٠٥م.
- تأريخ النّحو العربي : محمّد المختار ولد أباه ، ط١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، بيروت – لبنان ، ٢٠٠٨م .
- التفكير العلمي في النحو العربي د. حسن خميس الملخ ، دار الشروق للنشر والتوزيع – عمان الأردن ط١، ٢٠٠٢م .
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، لابن العماد الحنبليّ(ت ١٠٨٩هـ) ، ط١ ، دار ابن حزم ، بيروت– لبنان ، ١٩٩٩م .
- شرح المفضليات : لأبي بكر محمد بن القاسم(ت ٣٢٨هـ) المطبعة المنيرية ، القاهرة – مصر ١٣٨٩هـ .
- طبقات النحويين واللغويين : لأبي بكر محمّد بن الحسن المذحجي الزبيدي (ت ٣٧٩هـ) ، تحقيق : محمّد أبو الفضل إبراهيم ، ط١، القاهرة – مصر ، ١٩٧٣م .
- غاية النهاية في طبقات القرّاء : لمحمّد بن محمد الجزري (ت ٨٣٣هـ) تحقيق : ج : برجستراسر ، ط١ ، القاهرة – مصر / ١٣٩٩هـ .
- الكتاب، سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان (ت١٨٠هـ)، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ط٣، عالم الكتب، بيروت، لبنان، ١٤١٣هـ/١٩٨٣م.
- لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري(ت٧١١هـ)، ط١، دار صادر، بيروت، لبنان، (د.ت).
- مجالس العلماء : لأبي عبد الرحمن الزجاجي (ت ٣٣٧هـ) تحقيق : عبد السلام هارون ، المكتبة العصرية ، بيروت – لبنان ، ١٩٩٩م .
- المذهب الذاتي في نظرية المعرفة، كمال الحيدري، ط١، منشورات دار فرقد ستارة، إيران، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.
- المسائل المُشكلة البغداديات ، لأبي علي الحسن بن عبد الغفار الفارسي ، تحقيق : الدكتور علي جابر المنصوري ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد – العراق ، ١٩٩٦م .
- المفصل في تاريخ النحو : الدكتور محمّد خير الحلواني ، دار صيدا – بيروت لبنان ١٩٨٩م .

- معارج الأصول، المحقق الحلي (ت٦٧٦هـ)، المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف، ١٣٧٦هـ/١٩٥٦م.
- الموافقات في أصول الشريعة، لأبي إسحاق الشاطبي(ت٧٩٠هـ)، تحقيق محمد عبد القادر الفاضلي، ط١، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت ، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.
- الموشح : المرزباني (ت ٣٨٤هـ) : دار الكتب التراثية، سوق الكتاب ، القاهرة – مصر ، ١٩٨٤م .
- موقف من يونس بن حبيب ، د. محمود حسني ، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني ، ٢٠٠٥م .
- نزهة الألباء في طبقات الأدباء ، لأبي البركات عبد الرحمن بن محمّد بن سعيد (ت ٥٧٧هـ) ، تحقيق : محمّد أبو الفضل إبراهيم ،ط١، القاهرة – مصر ، ١٩٧٦م .
- نهاية السُول في شرح منهاج الوصول إلى علم الأصول، جمال الدين عبد الرحيم بن الحسن الإسنوي(ت٧٧٢هـ) تحقيق الدكتور شعبان محمد إسماعيل، ط١، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.
- وفيات الأعيان : لأبي العباس شهاب الدين أحمد بن محمّد بن خلكان (٦٨١هـ) ، تحقيق الدكتور إحسان عبّاس ، دار الكتب المصرية ، القاهرة – مصر ١٩٨٧م .
- يونس بن حبيب : د. حسين نصّار ، ط١ ، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة – مصر ، ، ١٩٦٨م .